وكذا ، فلما حاور القاضى المتهم أنكر فانصرف عنه ، وتوجَّه إلى صاحب الأمانة ، وقال له : اذهب إلى هذا المكان ، وابحثْ لعلَّك تكون قد نسيتَه هنا أو هناك .

أو لعلَّ آخر أخذه منك ، فذهب صاحب المال ، وفجأة سأل القاضى المتهم : لماذا تأخر فلان طوالَ هذا الوقت ؟ فردَّ المتهم : لأن المكان بعيدٌ يا سيادة القاضى . فخانتْه ذاكرته ، ونطق بالحق دون أن يشعر .

ثم يقول تعالى : ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالاً .. (٢٧) ﴾ [الحج] ورجالاً هنا ليست جَمْعاً لرجل ، إنما جمع لراجل ، وهو الذى يسير على رِجْلَيْه ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ .. (٢٧) ﴾ [الحج] الضامر : الفرَس أو البعير المهزول من طول السفر .

وتقديم الماشين على الراكبين تأكيد للحكم الإلهى ﴿ يَأْتُوكَ .. (٢٧) ﴾ [الحج] فالجميع حريص على أداء الفريضة حتى إنْ حَجَّ ماشياً .

وقوله : ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] أى : من كل طريق واسع ﴿ عَمِيقٍ (٢٧) ﴾ [الحج] يعنى : بعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾

كلمة ﴿ مَنَافِعَ .. (٢٨) ﴾ [الحج] كلمة عامة واسعة تشمل كل أنواع النفع : مادية دنيوية ، أو دينية أخروية ، ولا ينبغى أنْ نُضيِّق

ما وسَّعه الله ، فكُلُّ ما يتصل بالحج من حركات الحياة يُعَد من المنافع ، فاستعدادك للحج ، وتدبير نفقاته وأدواته وراحلته فيها منافع لك ولغيرك حين توفر لأهلك ما يكفيهم حتى تعود .

ما يتم من حركة بيع وشراء فى مناطق الحج ، كلها منافع متبادلة بين الناس ، التاجر الذى يبيع لك ، وصاحب البيت الذى يُؤجِّره لك ، وصاحب السيارة التى تنقلك .

إذن : المنافع المادية فى الحج كثيرة ومتشابكة ، متداخلة مع المنافع الدينية الأخروية ، فحين تشترى الهَدْى[1] مثلاً تؤدى نُسُكاً وتنفع التاجر الذى باع لك ، والمربِّى الذى ربَّى هذا الهَدْى ، والجزار الذى ذبحه ، والفقير الذى أكل منه .

إذن : لا يتم الحج إلا بحركة حياة واسعة ، فيها نَفْع لك وللناس من حيث لا تدرى ، ولك أنْ تنظرَ فى الهدايا التى يجلبها الحجاج معهم لأهليهم وذويهم ، خاصة المصريين منهم ، فترى بعضهم ينشغل بجَمْع هذه الأشياء قبل أنْ يُؤدِّى نُسُكه ويقضى معظم وقته فى الأسواق ، وكأنه لن يكون حاجاً إلا إذا عاد مُحمَّلاً بهذه الهدايا .

لذلك كان يأتى إلينا بعض هؤلاء يسألون : أنا علىَّ دَم مُتْعة[2]

---

(١) الهَدْى : الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج [ القاموس القويم ٢/٢٠١ ] وهو مستحب للحاج المفرد ، والمعتمر المفرد . وواجب على القارن والمتمتع . وكذلك على من ترك واجباً من واجبات الحج كرمى الجمار أو طواف الوداع . وكذلك واجب على من ارتكب محظوراً من محظورات الإحرام ، غير الوطء ، كالتطيب والحلق . [ انظر تفصيل هذا وشروط الهدى فى كتاب فقه السنة للشيخ سيد سابق ١/٥٣١ ] .

(٢) التمتع : هو الاعتمار فى أشهر الحج ، ثم يحج من عامه الذى اعتمر فيه ، وسمى تمتعاً للانتفاع بأداء النُّسُكين فى أشهر الحج فى عام واحد ، من غير أن يرجع إلى بلده . وصفة التمتع أنْ يُحرم من الميقات بالعمرة وحدها ، ويقول عند التلبية « لبيك بعمرة » ويؤدى مناسك العمرة ، ثم يتحلل من إحرامه ويتمتع بكل ما كان مُحرماً عليه إلى أن يجىء يوم التروية ، فيحرم من مكة بالحج . وهذا يجب عليه الهَدْى [ فقه السنة ١/٤٦٥ ، ٤٦٦ ] .

وليس معى نقود ، فماذا أفعل ؟ يريد أن يصوم . صحيح : كيف سيؤدى ما عليه وقد أنفق كُلَّ ما معه ؟ فكنت أقول له : اعطنى حقيبة سفرك ، وسأبيع ما بها ، ولن أبقى لك إلا ما يكفيك من نفقات حتى تعود .

أليست هذه كلها من المنافع ؟

ومن منافع الحج أن الحاجَّ منذ أنْ ينوى أداء هذه الفريضة ويُعد نفسه لها إعداداً مادياً ، وإعداداً نفسياً معنوياً ، فيحاول أنْ يُعيد حساباته من جديد ، ويُصلح من نفسه ما كان فاسداً ، وينتهى عمَّا كان يقع فيه من معصية الله ، ويُصلح ما بينه وبين الناس ، إذن : يجرى عملية صَقْل خاصة تُحوِّله إلى إنسان جديد يليق بهذا الموقف العظيم ، ويكون أهْلاً لرؤية بيت الله والطواف به .

ومن الإعداد للحج أنْ يتعلّم الحاجُّ ما له وما عليه ، ويتأدب بآداب الحج فيعرف محظوراته وما يحرُم عليه ، وأنه سوف يتنازل عن هنْدامه وملابسه التى يزهو بها ، ومكانته التى يفتخر بها بين الناس ، وكيف أن الإحرام يُسوِّى بين الجميع .

يتعلم كيف يتأدَّب مع نفسه ، ومع كل أجناس الكون من حوله[1] ، مع نفسه فلا يُفكّر فى معصية ، ولا تمتدّ يده حتى على شعرة من شعره ، أو ظُفُر من أظافره ولا يقْربُ طيباً ، ولا حتى صابونة لها رائحة .

والعجيب أن الحاج ساعة يدخل فى الإحرام يحرص كل الحرص

---

(١) يقصد صيد المحرم بالحج أو العمرة ، يقول تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ .. ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة] . ويقول أيضاً : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا .. ﴿٩٦﴾﴾ [المائدة] .

على هذه الأحكام ، واتحدى أىَّ إنسـان ينوى الحج ويأخذ فى الإحرام به ، ثم يفكر فى معصية ؛ لأنه يُعِدُّ نفسـه لمرحلة جديدة يتطهر فيها من الذنوب ، فكيف يـكتسب الـمزيد منـها وقـد أتى من بلاد بعـيـدة ليتطهر منها ؟

وفى الحجِّ يتأدب الحاج مع الحيوان ، فلا يصيده ولا يقتله ، ومع النبات فـلا يقطع شجراً . يـتأدب حتى مع الجـماد الذى يعتـبره أدْنى أجناس الكون ، فـيحرص على تـقبيل الـحجر الأسـود ، ويجتـهد فى الوصول إليه ، فإنْ لم يستطع أشار إليه بيده .

إن الحج التزام وانضباط يفوق أىَّ انضـباط يعرفه أهل الدنيا فى حـركـة حـياتـهم ، ففـى الحج ترى هذا الإنسـان السـيـد الأعلى لكل المـخلوقـات كَمْ هو منكسـر خاضع مـهـما كـانت منزلتـه ، وكم هى طمأنينة النفس البـشرية حين تُقبِّل حـجراً وهى راضية خـاضعة ، بل ويحزن الإنسان إذا لم يتمكن من تقبيل الحجر .

ثم يقـول الحق سـبـحـانه وتعـالى : ﴿ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ .. (٢٨) ﴾ [الحج]

يذكـروا اسم الله ؛ لأن كل أعـمـال الـحج مـصـحـوبة بذكـر الله وتلبـيته ، فـمَا من عـمل يُؤدِّيه الحاجّ إلا ويقـول : لبيك اللهم لـبيك . وتظل التلبية شاغله ودَيْدنه إلى أنْ يرمى جمرة العقبة . ومعنى « لبيك اللهم لبـيك » أن مشـاغل الدنيا تطـلبنى ، وأنت طلبتنى لأداء فَـرْضك علىَّ ، فـأنا أُلبِّـيك أنت أولاً ؛ لأنـك خالـقى وخـالق كل مـا يشـغلنى ويأخذنى منك .

والأيام المعلومات هى : أيام التشريق[1] .

ومعنى : ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [الحج] أى : يشكرون الله على هذا الرزق الوقتى الذى يأكلون منه ويشربون ، ويبيعون ويشترون فى أوقات الحج . أو يشكرون الله على أنْ خلقَ لهم هذه الأنعام ، وإنْ لم يحجُّوا ، ففى خَلْق الأنعام - وهى الإبل والبقر والغنم والماعز - وتسخيرها للإنسان حكمة بالغة ، ففضلاً عن الانتفاع بلحمها وألبانها وأصوافها وأوبارها اذكروا الله واشكروه أنْ سخَّرها لكم ، فلولا تسخير الله لها لَمَا استطعتُم أنْ تنتفعوا بها ، فالجمل مثلاً هذا الحيوان الضخم يقوده الطفل الصغير ، ويُنيخه ويحمله فى حين لم يستطع الإنسان تسخير الثعبان مثلاً أو الذئب .

لذلك يقول تعالى : ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ .. (٧٢)﴾ [يس]

لذلك نذكر الله ونشكره على ما رزقنا من بهيمة الأنعام استمتاعاً بها أكْلاً ، أو استمتاعاً بها بَيْعاً أو زينة ، كما قال تعالى : ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾ [النحل]

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره ( ٣/٢١٧ ) أربعة أقوال فى تأويل الأيام المعلومات :
- أيام العشر الأُوَل من شهر ذى الحجة . قاله ابن عباس وأبو موسى الأشعرى ومجاهد وغيرهم وهو مذهب الشافعى والمشهور عن أحمد بن حنبل .
- يوم النحر وثلاثة أيام بعده . وهو أيام ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة وهى المسماة بأيام التشريق . قاله ابن عباس وابن عمر وإليه ذهب أحمد بن حنبل فى رواية عنه .
- يوم النحر ويومان بعده . قاله ابن عمر والسدى وهو مذهب مالك .
- يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق . قاله زيد بن أسلم أى أيام ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ من شهر ذى الحجة .

ولولا أن الله تعالى ذَلَّلها لخدمتك ما استطعْتَ أنت تذليلها والانتفاع بها ؛ لذلك من حكمة الله أنْ يترك بعض خَلْقه غير مُسْتأنس ، ولا يمكن لك بحال أن تستأنسه أو تُذلّله لتظل على ذكْر لهذه النعمة ، وتشكر الله عليها .

وسبق أن ضربنا مثلاً بالبرغوث ، وهو من أدْنى هذه المخلوقات ، ولا تكاد تراه ، ومع ذلك لا تقدر عليه ، وربما أقضّ مَضْجعك ، وأقلق نومك طوال الليل . وتلمس هذه النعمة في الجمل الذي يقوده الصبي الصغير ، إذا حرن[1] منك فلا تستطيع أن تجعله يسير رغماً عنه ، أو صَالَ فلا يقدر عليه أحد ، وقد يقتل صاحبه ويبطش بمَنْ حوله .

إذن : لا قدرة لك عليه بذاتك ، إنما بتذليل الله يمكن الانتفاع به ، فتسوقه إلى نَحْره ، فيقف ساكناً مُسْتسلماً لك .

والمتأمل في حال الحيوانات التي أحلها الله لنا يجد أمرها عجيباً ، فالحيوان الذي أحلَّه الله لك تظل تنتفع به طوال عمره ، فإذا ما تعرّض لما يُزهق روحه ، ماذا يفعل ؟ يرفع رأسه إلى أعلى ، ويعطيك مكان ذَبْحه ، وكأنه يقول لك : أنا في اللحظات الأخيرة فاجتهد في أنْ تنتفع بلحمي ، وأهل الريف إذا شاهدوا مثل هذه الحالة يقولون : طلب الحلال يعني الذبح . أما الحيوان الذي لا يُذبح ولا يُحله الله فيموت مُنكّس الرأس ؛ لأنه لا فائدة منه .

هذا الحيوان الذي نتهمه بالغباء ونقول أنه بهيم .. الخ لو فكرتَ

(١) حرنت الناقة : قامت فلم تبرح . [ أي : رفضت السير ] . لا تنقاد ، إذا استُدِر [ طُلب منها ] جريها وقفت . [ لسان العرب - مادة : حرن ] .

فيه لَتغيَّر رأيُك ، فالحمار الذى نتخذه رَمْزاً للغباء وعدم الفَهْم تسوقه أمامك وتُحمِّله القاذورات وتضربه فلا يعترض عليك ولا يخالفك ، فإنْ نظفْته وزيَّنْتَه بلجام فضة ، وبردعة قطيفة تتخذه رُكُوبة وزينة ويسير بك ويحملُك ، وأنت على ظهره ، فإنْ غضبتَ عليه واستخدمْته فى الأحمال وفى القاذورات تحمَّل راضياً مطيعاً..

وانظر إلى هذا الحمار الذى نتخذه مثالاً للغباء ، إذا أردتَ منه أن يقفز قناة أوسع من مقدرته وإمكانياته ، فإنه يتراجع ، ومهما ضربتَه وقسوْتَ عليه لا يُقدم عليها أبداً ؛ لأنه يعلم مدى قفزته ، ويعلم مقدرته ، ولا يُقدِم على شىء فوق ما يطيق ـ وبعد ذلك نقول عنه : حمار !!

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَكُلُوا(١) مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ﴾ [الحج]

البائس : هو الذى يبدو على سحْنته وشكله وزيِّه أنه فقير محتاج ، أما الفقير فهو محتاج الباطن ، وإنْ كانَ ظاهره اليُسْر والغنَى ، وهؤلاء الفقراء لا يلتفت الناس إليهم ، وربما لا يعلمون حالهم وحاجتهم ، وقد قال الله فيهم : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا.. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

والمعنى : كُلُوا مما يُبَاح لكم الأكل منه ، وهى الصدقة المحضة ، أو الهدية للبيت غير المشروطة بشىء ، يعنى : لا هى دم قرآن أو

---

(١) قال أبو بكر الجصاص ( ت ٣٧٠هـ ) فى كتابه « أحكام القرآن » ط . دار الكتب العلمية ( ٣٠٧/٣ ) : « ظاهره يقتضى إيجاب الأكل ، إلا أن السلف متفقون على أن الأكل منها ليس على الوجوب ، وقد رُوى عن عطاء والحسن وإبراهيم ومجاهد قالوا : « إن شاء أكل ، وإن شاء لم يأكل » .

تمتُّع ، ولا هـى فدية لمخـالفة أمـر من أمور الإحـرام ، أو كانت نذراً فهذه كلها لا يؤكل منها[1] .

إذن : كلوا من الصدقة والتطوع ، وأطعموا كذلك البائس والفقير ، ومن رحمة الله بالفقراء أنْ جعل الأغنياء والمـياسير هم الذين يبحثون عن الذبائح ويشتـرونها ويذهبون لمكان الذبح ويـتحمَّلون مشـقة هذا كله ، ثم يبحثون عن الفقير ليـعطوه وهو جالس فى مكانه مستريحاً ، يأتيه رِزْقه من فَضْل الله سهلاً مُيسَّراً .

لذلك يقـولون : من شـرف الفقـير أنْ جـعله الله ركناً من أركـان إسلام الـغنىّ ، أى : فى فريضـة الزكاة ، ولم يجـعل الغنى ركناً من أركان إسلام الفقير .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ[2] وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) قال الجصـاص فى « أحكام القرآن » ( ٣/ ٣٠٧ ) : « الناس فى دم القران والمـتعة على قـولين : منهم مَنْ لا يـجيـز الأكل منـه . ومنهم من يبيـح الأكل منه ولا يوجـبـه » وقـال الشافعى فى كتـاب الأم ( ٢/ ٢٤٠ ) : « الهدى هديان : واجب وتطوع . فكل ما كان أصله واجبـاً على إنسان ليس له حبسه ، فلا يأكل منه شيـئاً وذلك مثل : هدى الفـساد والطيب وجزاء الصيد والنذور والمتعة ، وإن أكل من الهدى الواجب تصدق بقيمة ما أكل منه . وكل ما كان أصله تطوعاً مثل الضحـايا والهدايا تطوعاً أكل منه وأطعم وأهدى وادخر وتصدق ، وأحبّ إلىّ أن لا يأكل ولا يحبس إلا ثلثاً ويهدى ثلثاً ويتصدق بثلث » .

(٢) قال الزجاج : لا يعـرف أهل اللغة التفث إلا من التفسـير . وقال أبو عبيـدة : لم يجىء فيه شعـر يحتج به . وقـال ابن الأعرابى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحج] . قال : قـضاء حوائجهم من الحلق والتنظيف . [ لسان العرب ـ مادة : تفث ] .

﴿ لْيَقْضُوا .. (٢٩) ﴾ [الحج] كلمة قضاء تُقال ، إما لقضاء الله الذى يقضيه على الإنسان مثلاً ، وهو أمر لازم محكوم به ، وإما قضاء من إنسان بين متخاصمين ، وأول شىء فى مهمة القضاء أن يقطع الخصومة ، كأن المعنى ﴿ لْيَقْضُوا .. (٢٩) ﴾ [الحج] أى : يقطعوا .

ومعنى ﴿ تَفَثَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الحج] لما نزل القرآن بهذه الكلمة لم تكن مستعملة فى لسان قريش ، ولم تكن دائرة على ألسنتهم ، فسألوا عنها أهل البادية ، فقالوا : التفَثُ يعنى : الأدران والأوساخ التى تعلَقُ بالجسم ، فقالوا : والله لم نعرفها إلا ساعةَ نزل القرآن بها .

فالمراد - إذن - ليقطعوا تفثهم أى الأدران التى لحقتهم بسبب التزامهم بأمور الإحرام ، حيث يمكث الحاجُّ أيام الحج مُحْرِماً لا يتطيب ، ولا يأخذ شيئاً من شعره أو أظافره ، فإذا ما أنهى أعمال الحج وذبح هَدْيه يجوز له أنْ يقطع هذا التفث ، ويزيل هذه الأدران بالتحلُّل من الإحرام ، وفعْل ما كان محظوراً عليه .

وقوله تعالى : ﴿ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الحج] إن كان قد نذر لله شيئاً فعليه الوفاء به .

﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ﴾ [الحج] يعنى : طواف الإفاضة ، والطواف : أنْ تدور حول شىء بحيث تبدأ وتنتهى ، وتبدأ وتنتهى ، وهكذا ، وقد وصف البيت بأنه عتيق ، وكلمة عتيق استعملت فى اللغة استعمالات واسعة ، منها : القديم ، وما دام هو أول بيت وُضِع للناس فهو إذن قديم ، والقِدَم هنا صفة مدح ؛ لأنها تعنى الشىء الثمين الذى يُحافظ عليه ويُهتَم به .

كما نرى عند بعض الناس أشياء ثمينة ونادرة يحتفظون بها

ويتوارثونها يسمونها « العاديات » مثل : التحف وغيرها ، وكلما مَرَّ عليها الزمن زادتْ قيمتها ، وغلا ثمنها .

والعتيق : الشيء الجميل الحسن ، والعتيق : المعتوق من السيطرة والعبودية لغيره ، فما المراد بوصف البيت هنا بأنه عتيق ؟

وَصْف البيت بالقدَم يشمل كُلَّ هذه المعانى : فهو قديم ؛ لأنه أول بيت وُضِع للناس ، وهو غالٍ ونفيس ونادر حيث نرى فيه مَا لا نراه فى غيره من آيات ، ويكفى أن رؤيته والطواف به تغفر الذنوب ، وهو بيت الله الذى لا مثيلَ له .

وهو كذلك عتيق بمعنى معتوق من سيطرة الغير ؛ لأن الله حفظه من اعتداء الجبابرة ، ألاَ ترى قصة الفيل ، وما فعله الله بأبرهة حين أراد هَدْمه ؟ حتى الفيل الذى كان يتقدَّم هذا الجيش أدرك أن هذا اعتداءٌ على بيت الله ، فتراجع عن البيت ، وأخذ يتوجَّه أى وجهة أرادوا إلا ناحية الكعبة .

ويُقال : إن رجلاً[1] تقدّم إلى الفيل . وقال فى أذنه : ابْرُك محمود - اسم الفيل - وارجع راشداً فإنك ببلد الله الحرام . وقد عبَّر الشاعر[2] عن هذا الموقف ، فقال :

حُبِسَ الفيل بالمُغَمَّسِ حتَّى ظَلَّ يعوى كأنه مَعْقُور[3]

ثم ينزل الله عليهم الطير الأبابيل التى ترميهم بالحجارة حتى الموت .

---

(١) هو : نفيل بن حبيب الخثعمى . فيما ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية ( ١/٥٢ ) .
(٢) هو : أمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة الثقفى .
(٣) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١ / ٦٠ ) هذا البيت ضمن أبيات أخرى لأمية بن أبى الصلت .

لذلك لما ذهب عبد المطلب جَدُّ الرسول ﷺ ليُكلِّم أبرهة فى الإبل المائة التى أخذها من إبله ، قال أبرهة : لقد كنتُ أهابك[1] حين رأيتُك ، لكنك سقطت من نظرى لما كلَّمتنى فى مائة بعير أصبْتها لك ، وتركتَ البيت الذى فيه مجدُكم وعزكم .

فماذا قال عبد المطلب ؟ قال : أما الإبل فإنها لى ، أما البيت فله رَبٌّ يحميه .

البعض يتهم عبد المطلب لمقالته هذه بالسلبية ، وليست هذه سلبية من كبير قريش ، إنما ثقةٌ منه فى حماية الله لبيته ؛ لذلك رَدَّه إلى أقوى منه ، وكأنه قال : إنْ كنتُ أحميه أنا ، فسأحميه بقوتى وقدرتى وحيلتى ، لكننى أريد أنْ أرعبه بقدرة الله وقوته ، وما سلَّمتُ البيت إلاَّ وأنا واثق أن ربَّ البيت سيحميه ، وهذه تُزلزل العدو وتُربكه .

وما أشبه موقف عبد المطلب بموقف موسى عليه السلام ، لما قال له قومه : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الشعراء] فقال فى يقين وثقة : ﴿ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الشعراء]

إذن : لم يَكُنْ عبد المطلب سلبياً كما يتهمه البعض ، بل كان إيجابياً من النوع الراقى ، فلو كان إيجابياً بالمعنى الذى تريدون لأعطتْه هذه الإيجابية منعةً بقوته هو ، إنما تصرُّفه وما تعتبرونه سلبية أعطاه منعةً بقدرة الله وقُوَّته سبحانه ؛ لذلك تدخَّلتْ فوراً جنود السماء .

---

(١) ويذكر ابن هشام فى السيرة النبوية ( ٤٩/١ ) أن « عبد المطلب كان أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه أبرهة أجلّه وأعظمه وأكرمه عن أن يُجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة يجلس معه على سرير مُلكه فنزل أبرهة عن سريره ، فجلس على بساطه ، وأجلسه معه عليه إلى جنبه » .

لكن ، لماذا الطواف والدوران حول الكعبة ؟

قالوا : لأن المسلم وهو غائب عن الكعبة يُصلِّى لجهتها ، كلٌّ حسب موقعه منها ، فتجد المسلمين فى كل أنحاء العالم يتجهون نحوها ، كل من ناحية ، هذا من الشمال ، وهذا من الجنوب ، وهذا من الشرق ، وهذا من الغرب ، يعنى بكل الجهات الأصلية والفرعية .

فإذا ما ذهبتَ إلى الكعبة ذاتها ، وتشرفتَ برؤيتها ، فهل تستقبلها من نفس المكان الذى كنتَ تتجه إليه فى صلاتك وغيرك وغيرك ؟ إذن : فكل اتجاهات الكعبة سواء لك ولغيرك ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ .. (١١٥) ﴾ [البقرة] فليس هناك مكان أَوْلَى من مكان ؛ لذلك نطوف حول البيت .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ(١) وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ (٣٠) ﴾

﴿ ذَٰلِكَ .. (٣٠) ﴾ [الحج] إشارة إلى الكلام السابق بأنه أمْر واضح ، لكن استمع إلى أمر جديد سيأتى ، فهنا استئناف كلام على كلام سابق ، فبعد الكلام عن البيت وما يتعلَّق به من مناسك الحج يستأنف السياق :

---

(١) الأوثان : جمع وثن ، وهو التمثال من خشب أو حديد أو ذهب أو فضة ونحوها وكانت العرب تنصبها وتعبدها ، والنصارى تنصب الصليب وتعبده وتعظمه فهو كالتمثال أيضاً . وقال عدى ابن حاتم : أتيت النبى ﷺ وفى عنقى صليب من ذهب فقال : « ألق هذا الوثن عنك » أى : الصليب وأصله من وثن الشىء أى : أقام فى مقامه . [ تفسير القرطبى ٦/٤٥٨٥ ] .

﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] فالحق - سبحانه - يريد لعبده أنْ يلتزمَ أوامره بفعل الأمر واجتناب النهى ، فكُلُّ أمر لله يَحرُم عليك أن تتركه ، وكلّ نَهْى يحرم عليك أنْ تأتيه ، فهذه هى حرمات الله التى ينبغى عليك تعظيمها بطاعة الأمر واجتناب النهى .

وحين تُعظِّم هذه الحرمات لا تُعظمها لذاتها ، فليس هناك شىء له حُرْمة فى ذاته ، إنما تُعظِّمها لأنها حرمات الله وأوامره ؛ لذلك قد يجعل الالتزام بها مُتغيِّراً ، وقد يطرأ عليك ما يبدو متناقضاً فى الظاهر .

فالوضوء مثلاً ، البعض يرى فيه نظافة للبدن ، فإذا انقطع الماء وعُدِم وجوده حلّ محلّه التيمُّم بالتراب الطاهر الذى نُغبِّر به أعضاء التيمم ، إذن : ليس فى الأمر نظافة ، إنما هو الالتزام والانقياد واستحضار أنك مُقْبل على أمر غير عادى يجب عليك أنْ تتطهَّر له بالوضوء ، فإنْ أمرتُكَ بالتيمم فعليك الالتزام دون البحث فى أسباب الأمر وعِلّته .

وهكذا يكون الأدب مع الأوامر وتعظيمها ؛ لأنها من الله ، ولِمَ لا ونحن نرى مثل هذا الالتزام أو رياضة التأديب فى الالتزام فى تعاملاتنا الطبيعية الحياتية ، فمثلاً الجندى حين يُجنَّد يتعلم أول ما يتعلم الانضباط قبل أنْ يُمسك سلاحاً أوْ يتدرب عليه ، يتعلم أن كلمة « ثابت » معناها عدم الحركة مهما كانت الظروف فلو لَدغه عقرب لا يتحرك .

ويدخل المدرب على الجنود فى صالة الطعام فيقول : ثابت فينفذ الجميع .. الملعقة التى فى الطبق تظل فى الطبق ، والملعقة التى فى

فم الجندى تظل فى فمه ، فلا ترى فى الصالة الواسعة حركة واحدة . وهذا الانضباط الحركى السلوكى مقدمة للانضباط فى الأمور العسكرية الهامة والخطيرة بعد ذلك .

إذن : فربُّك - عز وجل - أَوْلَى بهذا الانضباط ؛ لأن العبادة ما هى إلا انضباط عابد لأوامر معبود وطاعة مطلقة لا تقبل المناقشة ؛ لأنك لا تؤديها لذاتها وإنما انقياداً لأمر الله ، ففى الطواف تُقبِّل الحجر الأسود ، وفى رمى الجمار ترمى حجراً ، وهذا حجر وذاك حجر ، هذا ندوسه وهذا نُقبِّله فَحَجر يُقَبَّل وحَجر يُقْذَف ؛ لأن المسألة مسألة طاعة والتزام ، هذا كله من تعظيم حرمات الله .

لذلك الإمام على - رضى الله عنه - يلفتنا إلى هذه المسألة فيقول فى التيمم : لو أن الأمر كما نرى لكان مسح باطن القدم أَوْلَى من ظاهرها[1] ؛ لأن الأوساخ تعلق بباطن القدم أولاً .

وقد ذكرنا فى الآيات السابقة أن الحرمات خمس : البيت الحرام ، والمسجد الحرام ، والبلد الحرام ، والمشعر الحرام ، والشهر الحرام ، وحرمات الله هى الأشياء المحرمة التى يجب ألاَّ تفعلها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه جزاء هذا الالتزام : ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ .. (٣٠)﴾ [الحج] الخيرية هنا ليست فى ظاهر الأمر وعند الناس أو فى ذاته ، إنما الخيرية للعبد عند الله .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الأَنْعَامُ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ .. (٣٠)﴾ [الحج] قد تقول : كيف وهى حلال من البداية وفى الأصل ،

---

(١) روى أبو داود فى سننه ( ١٦٢ ) عن على بن أبى طالب أنه قال : لو كان الدين بالرأى لكان أسفل الخف أَوْلَى بالمسح من أعلاه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه . وفى رواية أخرى ( ١٦٤ ) : لو كان الدين بالرأى لكان باطن القدمين أحق بالمسح من ظاهرهما .

قالوا : لأنه لما حرَّم الصيد قد يظن البعض أنه حرام دائماً فلا ينتفعون بها ، فبيَّن سبحانه أنها حلال إلا ما ذُكر تحريمه ، ونصَّ القرآن عليه فى قوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ[1] وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ .. ۝٣ ﴾ [المائدة]

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ .. ۝١٢١ ﴾ [الأنعام]

ومعنى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ۝٣٠ ﴾ [الحج] الرجْس : النجاسة الغليظة المتغلغلة فى ذات الشىء . يعنى : ليست سطحية فيه يمكن إزالتها ، وإنما هى فى نفس الشىء لا يمكن أنْ تفصلها عنه .

﴿ وَاجْتَنِبُوا .. ۝٣٠ ﴾ [الحج] لا تدل على الامتناع فقط ، إنما على مجرد الاقتراب من دواعى هذه المعصية ؛ لأنك حين تقترب من دواعى المعصية وأسبابها لا بُدَّ أن تداعبك وتشغل خاطرك ، ومَنْ حام حول الشىء يوشك أنْ يقع فيه ، لذلك لم يقُل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ امتنعوا إنما قال : اجتنبوا ، ونعجب من بعض الذين أسرفوا على أنفسهم ويقولون : إن الأمر فى اجتنبوا لا يعنى تحريم الخمر ، فلم يَقُلْ : حُرِّمَتْ عليكم الخمر .

نقول : اجتنبوا أبلغ فى النهى والتحريم وأوسع من حُرِّمَتْ عليكم ، لو قال الحق ـ تبارك وتعالى ـ حُرِّمت عليكم الخمر ، فهذا يعنى أنك لا تشربها ، ولكن لك أن تشهد مجلسها وتعصرها وتحملها

---

(١) المنخنقة : البهيمة التى التف حبلها حول عنقها فخنقها فماتت . والموقوذة : هى الحيوان الذى وُقذ ( ضُرب ) بعصاً أو حجر حتى مات قبل أن يُذكَّى ذكاة شرعية . والمتردية : هى التى ماتَت بسبب سقوطها فى حفرة . والنطيحة : ما ماتت بسبب النطح . [ القاموس القويم ] .

وتبيعها ، أما اجتنبوا فتعنى : احذروا مجرد الاقتراب منها على أىّ وجه من هذه الوجوه .

لذلك ، تجد الأداء القرآنى للمطلوبات المنهجية فى الأوامر والنواهى من الله يُفرِّق بين حدود ما أحلَّ الله وحدود ما حرَّم ، ففى الأوامر يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا .. ﴿٢٢٩﴾ ﴾ [البقرة]

وفى النواهى يقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا .. ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]

ففى الأوامر وما أحلَّ الله لك قفْ عند ما أحلَّ ، ولا تتعداه إلى غيره ، أمَّا المحرمات فلا تقترب منها مجردَ اقتراب ، فلما أراد الله نَهْى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة قال لهما : ﴿ وَلا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة]

وبعد أن أمر الحق سبحانه باجتناب الرجْس فى عبادة الأصنام قال : ﴿ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] فقرن عبادة الأوثان بقول الزُّور ، كأنهما فى الإثم سواء ؛ لذلك النبى ﷺ سلَّم يوماً من صلاة الصبح ، ثم وقف وقال : « ألا وإن شهادة الزور جعلها الله بعد الأوثان »[1] .

لماذا ؟ لأن فى شهادة الزور جماع لكل حيثيات الظلم ، فساعةَ يقول : ليس للكون إله ، فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، ساعة يقول : الإله له شريك فهذه شهادة زور ، وقائلها شاهد زور ، كذلك حين يظلم أو يُغير فى الحقيقة ، أو يذمُّ الآخرين ، كلها داخلة تحت شهادة الزور .

(١) عن خريم بن فاتك الأسدى قال : « صلى رسول الله ﷺ صلاة الصبح ، فلما انصرف قائماً قال : عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ( ثلاثاً ) ، ثم تلا هذه الآية ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحج] » أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢١/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٠) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٩٩) .